رواية «أيام في الجنة» لغالية آل سعيد:

عن حياة «دون جوان» عربي شرير يعيش حياة مزدوجة في لندن ويهوى الشعر والمُسنّات!

ابراهيم درويش*

■ يشعر قارئ رواية العمانية غالية آل سعيد «ايام في الجنة» بالضيق وهو يلاحق مغامرات بطلها غسان المنتهي في لندن، وآل سعيد تعنى لأول مرة برسم صورة عن العربي الانتهازي والطفيلي الذي يعيش على تعب غيره، لأول مرة يصبح فيها العربي القاتل وليس الضحية (باستثناء الاعمال الروائية الشعبية)، وهو مركز الاستقطاب في العمل الروائي لانه يصنع الاحداث ويحاول بناء وتيرته ويؤكد مبنى السرد.

وهذا العمل الذي يبدو انه الأول وان لم يخل احيانا من التشتت وتوسع الاحداث بين لندن وعمان والقاهرة، الا ان صورة الرجل العربي «الشرير» في هذه الحالة تواصل تطورها وتدفقها بجشع ليس له حد. وتعمل غالية سعيد على تبديد المفهوم الخاطئ عن الشرير «الاخر» او الشريرة التي تقوم بايقاع الاخرين بحبالها وتتصيدهم او تمنحهم جسدها مقابل حفنة من القروش الانكليزية.

غسان يعيش حياته في لندن بسبب الفشل الذي عاناه في دراسته، وعدم قدرته على العمل الشريف الذي استبدله بالخداع والسرقة والزيف، واجتراح شخصية مزدوجة تعيش عالمين مختلفين، وهو لا يريد العودة الى بلاده وعمان حتى لا يواجه المجتمع الذي لا يرحم فاشلا، ولكن هذا المجتمع كما تكشف عنه الكاتبة مفكك ولا يربط بينه اي رابط. يتمادى غسان في تصرفاته، ويسطو على كل شيء مقابل ارضاء نوازع الجاه والثروة والغرور في نفسه. تقدم لنا غالية آل سعيد صورة لأوليفر تويست عربي يتعيش في هذه المرة على النساء العاجزات او القبيحات وليس على الاطفال كما هو حال بطل ديكنز، والسطور الأولى من رواية آل سعيد تقدم هذا الحس الديكنزي عندما يعود غسان في اخر الليل الى شقته التي يعيش فيها مع كلارا المرأة المسحوقة، بفعل تصرفاته، وما يثير في سرد غالية ان المرأة الغربية تبدو هنا مستعبدة، فهي لا تشعر بعقدة التفوق على الاخر، كما يبدو في سرديات اخرى، والقصص المثيرة التي تكتب عن مغامرات نساء بيض من اجل استرجاع ابنائهن واعادتهم الى حظيرة الحياة الغربية التي نزعوا منها نظرا لاختلاف الثقافتين. ويبدو ان هذا الحس له اتصال بطبيعة العلاقة التي تربط كلارا وغسان، فكلاهما بحاجة للاخر، هي بحاجة الى شبابه لكي تخفي قبحها وعجزها وتهدل لحمها، وهو بحاجة الى مكان للاستقرار والشعور بالامان كي يمارس شروره ضد نفسه اولا وضد المجتمع ثانيا.

عزاء غسان ان افعاله المنكرة لا يعرفها احد، ففي المدن الكبيرة حيث تتعدد الوجوه يصبح من الصعب اكتشاف طبيعة الناس، فالوجوه التي تقابلها في قطارات المترو والحافلات تخفي وراءها اقنعة من القلق والترقب والخوف والبحث عن المجهول مع ان ما يجمعها هو السكون والركون لسطوة القطار الذي يتحكم بدقائق اللحظة، واي عطل فني في محطات القطارات وما اكثرها كفيل بان يعيد لخبطة الاشياء.

لندن مدينة مفتوحة، ولهذا السبب يمارس غسان بطولاته الفارغة، والدون كيخوتية مدفوعا بحس التعويض والانتقام من فشله ومن عجزه ومن الاشخاص القليلين الذين فتحوا ابوابهم له، ولكن غسان رجل بلا ذمة او ضمير لديه القابلية لبيع كل شيء حتى دينه مقابل ارضاء احتياجاته، فهو في قريته العمانية يسرق ممتلكات الكنيسة! «بعد ان صار مسيحيا، مع ان هويته الدينية ليست مهمة في السياق» ويعود الى لندن للاستمتاع بها، وفي القاهرة يترك زوجته في مقهى غريبة وحيدة ليعود الى الفندق كي يواصل مغامراته للايقاع بصاحبة الفندق اليونانية العجوز والمصابة بمرض النسيان. ما الذي يجعل غسان مميزا وقادرا على فعل كل الامور المثيرة؟ وسامته، مع انها لا تكفي وادعاءاته بالغنى التي يعرفها كل الذين يختلط بهم كثيرا في الحي ليست ايضا كافية، ربما كانت الشخصية الفهلوية والعادية في مظهرها وراء نجاح البطولات الفارغة التي يقوم بها بطلنا العربي الشارد. بعبارة اخرى غسان هو نمط عن الشخصية الفهلوية المدعية التي تحاول الاستفادة من عجز الاخرين، ولكن غسان الشرير ذكي ايضا، ويملك في النهاية سلطته التي تذعن لها، على الاقل كلارا. فهي تخافه كل الخوف، وتصدق اكاذيبه لانها تبحث عن نوع من الخلاص من وضعها الاجتماعي الرث والتعيس، وهي تعمل ليل نهار لاطعام نفسها ورجلها، غسان، في شقة غريبة من الشقق التي يمنحها المجلس المحلي. وكلارا في النهاية تصبح صورة مشوهة عنه، فهي وان لم تشاركه في افعاله ضد النساء، ولكنها تجد في تعاسة الاخريات على يديه عزاء لها.

يستفيد غسان من البيروقراطية البريطانية خاصة في قطاع العمل المدني ليحقق رغباته، اما كلارا فتطمح لتغيير نمط حياتها والانتقال لبيت اخر، لكن غسان رجل مدمن على الكذب والخداع والسرقة، وارتباطها بها وتضحيتها من اجله مثير للدهشة، فهي امرأة مستعبدة، مجبرة على القيام باعمال غريبة في الفراش ومضطرة للعمل من اجل اعالة زوجها، والقبح هنا غطاء يخفي شخصية متصدعة من الداخل، هشة غير قادرة على التواصل مع الواقع بدون سند حتى لو كان شريرا.

ما يدفع كلارا للعيش معه، هو انها بحاجة الى الشعور بالامان في مدينة مثيرة، فهي تتخلى عن احلامها طالما وجدت في البيت من يرافقها ويعيش معها. ان وجود هذا الآبق العربي الشرير، على علاته ضروري لبقائها، وهي في تسترها عليه او اغضائها الطرف عن تصرفاته، اما شريرة او ساذجة لا تعرف شيئا عن الحياة. ربما لان الذين يعيشون في المدينة منقطعون عن اصولهم، كان سببا في استمرار العلاقة.

غسان هو البطل المضاد للبطل العربي، الهامشي او الضحية، في روايات التواصل بين الغرب والشرق، وفي روايات ما بعد الاستعمار، وهو البطل الضد مقابل البطل المتمرد والانتقامي، مصطفى سعيد مثالا، ولكن لا مجال للمقارنة بين بطل «موسم الهجرة للشمال» وبطل «ايام في الجنة»، فالجذور الاجتماعية والطموحات والمستوى الثقافي مختلف، لا مجال للتفرقة بين مثقف قلق بمصيره ووجوده وبين بطل لا يقلق لمصيره او مصير الاخرين، يمارس شهوة الخديعة بلا احساس او شعور بالندم. وغالية سعيد هنا لا تفصح كثيرا عن العالم الداخلي لبطلها، فهو غارق في عالمه الذي اخترعه للتعويض عن كل الاشياء التي خسرها، ولكنه لا يعرف ان هذه الايام لن تطول، لانها «ايام» قليلة في الجنة التي اخترعها. في السطور الأولى من عمل غالية آل سعيد نعرف أننا امام بطل/ شرير مأزوم، ولكن ليس نادما، يستعيد ذكرياته في الشقة الفقيرة التي تسترت على بطولاته الفارغة، وهو البطل الذي يستفيق على وقع الكارثة في الطريق المنطقي لدائرة الشرطة، حيث يقول «ولكن هذا الواقع لم ينكشف حتى اليوم وانا اقاد الى سيارة الشرطة الواقفة اسفل عمارتي، وربما لو كشف قبل الان لاستطعت العودة الى صوابي»، وهو يرى ان قدرته على مواصلة الخداع او الادمان عليه كانت وراء مواصلته حياته وافعاله القبيحة، يستذكر فيما يستذكر قصة صديقه ناصر العماني الذي اقام علاقة مع امرأة عجوز لم يرض عنها مجتمعه المحافظ، وانتهت امام المحكمة، ويقول لو حصل له ما حصل للعماني الاخر لما صار اليه وضعه الان. غسان المنتهي، يواجه مصيره بعد ثلاثين عاما من الخداع، فهو في لندن منذ 1970، ومع اعترافه بالذنب او محاولته فهم ما حصل له، الا انه يلوم المجتمع المفتوح الذي عاش فيه، فلو «كنت اعيش في بلدي ذي العادات والتقاليد الصارمة لما كان باستطاعتي ان اعيش هكذا، وكنت سأنكشف بسرعة». غسان المنتهي، يلقي اللوم على انفتاح لندن، وعدم اهتمامها بالقادمين اليها، وهي التي كانت وراء شخصية «الدون جوان» العربي الوسيم صاحب المظهر الانيق والساعة الذهبية والهندام الجميل والحذاء المصنوع من ارقى انواع الجلد، والمحفظة المليئة بالنقود دائما (مع انه في الحقيقة لم يكن هكذا)، وهو هنا يكذب فمظهره الزائف هذا تحقق بالسرقات الصغيرة التي كان يقوم بها في الكازينوهات او الفنادق الراقية. وكازانوفا العربي، يعرف كيف يصطاد نساءه من العاملات في المطاعم او العواجيز اللواتي يبحثن عن فرصة او القلقات، وهو هنا ايضا منافق في بحثه عن شماعة يعلق عليها كل اعماله الهزيلة، فهو وان تحدث عن مجتمع شرقي يرفض مسار حياته، الا انه اختار من هذا المجتمع الرؤية التسلطية، والمعاملة القاسية لكل النساء اللائي لقيهن وعاملهن باعتبارهن صيداً ثميناً، كما ان اخلاق العربي الكريمة تمنعه من التعيش على حساب المسكينات. وخلف كل المغامرات، يدعي المنتهي انه من الشعراء الهواة، رأسه المليئة بالاشعار والكلمات «الطموحات» مثل ابناء جيله، جيل الاربعينات، ولانه لا يوجد امامه من يستمع لقصائده «العصماء» هذه فهو يرددها على نفسه، الشاعرية، والسكر الدائم، والزيف، هي اقنعة تخفي وراءها صورة الشرير في داخل هذا البطل، الذي ظل يرسم صورة زاهية ومزهوة عن نفسه، لدرجة قيامه بشراء لقب لورد من مزاد «سوذبي»، كان عربة لطموحاته وشهواته الانية. وقائمة النساء اللاتي اوقعهن في حبائله، نساء مسكينات بالطبع، تشي بهذا الحس العبثي الذي لا يقيم للحياة او قيمها اي احترام، كادي، وكلثم، وكلوديا، هذه بعض الاسماء التي مناهن بالحب، والزواج، والبيت والغنى، وسرقهن واعتاش على عرقهن وتعبهن، وامتص العاطفة من داخلهن.

غلاف الكتاب

تصل احداث الرواية عندما يقنع غسان، زوجته كلارا بضرورة زواجه من الهندية، كلثم حيث توافق مع انها زوجته، والقانون الانكليزي يمنع التعدد، واقامت في شقة كلوديا «الايطالية العجوز التي ضربها واهانها، وهي الارملة المسكينة» والتي سافرت مع صديقتها نورما الشاكة من تصرفات غسان الى ايطاليا، في الوقت الذي ظلت فيه مصففة الشعر الاندونيسية كادي تلاحق الدون جوان العربي ولم تنفعها الوصفة السحرية التي بعثت بها والدتها خصيصا من اندونيسيا لتغيير عقل غسان واجباره على الزواج.

كلثم تعيش في غياب كلوديا في شقة تعتقد انها شقته وتلد ولدا تسميه غازي، وعندما بدأت تقل زيارات غسان الذي لم يعد يلقي بالا للقانون او الادب تبحث عن شرطي تحر لكي يعرف حقيقة هذا العربي الزائف، وعندما تعود الى البيت بعد مقابلتها شرطي التحري، تواجه كلوديا التي عادت الى شقتها ويظهر السيد غسان المنتهي على حقيقته. غسان الخائف من العودة الفاشلة الى بلده عمان، يجد نفسه سجينا في لندن، وزوجته كلارا تدفع ثمن سذاجتها، وخوفها من العجز، واخلاصها الغريب له بالسجن ايضا، لانها كانت شريكته في جرم الزواج من كلثم. لم تتغير اخلاق غسان في السجن، فقد ظل يمارس تصرفاته السيئة، وبدلا من خروجه بعد خمسة اعوام، يمدد الحكم له لعشرة اعوام.. في السجن يتعلم الانكليزية بشكل جيد ويكتب روايته «ايام في الجنة»... اما ابنه غازي فلم يسمع منه.. نساء غالية آل سعيد ساذجات يقعن في حب اي شخص، ويصدقنه، وعلى الرغم من ان تصرفات غسان القاسية معهن مدانة، الا ان سحر الدون جوان العربي كان قويا لدرجة انه انساهن انفسهن وسمحن له بالتمادي في الاهانة، يقول مثلا عن كلارا انها زوجته في القانون، وهذا يعني انها خادمة «فلماذا يخاف منها او يعيرها اهمية؟ وهو قد روضها وجعلها ذليلة مطيعة له ولكل اوامره». تكتب غالية لغة سردية جيدة، يشطح فيها الخيال، لدرجة ان القارئ لا يستطيع ان يفرق بين الحقيقة والكذب، نعرف ان غسان كذاب ومنافق وأفاق وآبق، ولكن القارئ يتساءل عن صدق السارد، وهل يوجد في العالم شخصيات بمثل هذه السذاجة التي تصدق شخصا يدعي الغنى والثراء والجاه والمال، وانه ابن «الابهات»، الذي لا يركب الا الليموزين والمرسيدس، ولا يرتدي الا اللباس الذي تنتجه المتاجر الراقية للاغنياء، ولا يضع الا العطور ذات الشذى العابق.. وغسان هذا هو نفسه الذي يدخل متجر مواد التجميل والادوية «بوتس» ويسرق كل العطور الموضوعة للتجربة ويبيعها مثل المتشردين في الشارع.

سرد غالية ايضا فيه درجة من السخرية، ويخلو من التعاطف مع نسائها المصابات بداء حب العربي الشرير هذا، وفي النهاية، روايتها سهلة، سريعة الهضم، ليس فيها على الرغم من الاحداث الكبيرة والمثيرة درجة عالية من التوتر، فالقارئ يتوقع ما سيحدث وما ستؤول اليه الاحداث، ويعرف منذ البداية ان بطلنا كاذب وكذاب، اما بطلاته فهن مخدوعات وساذجات، ربما لانهن قنوعات باحثات عن ملجأ آمن كان وراء وقوعهن في حبال وغواية السيد غسان. والرواية مليئة بالصور الكثيرة عن رفاه المترفهين، والفنادق، والسيارات والمطاعم، والكازينوهات...

---

* ناقد من اسرة «القدس العربي»

الكاتبة: غالية آل سعيد ولدت في سلطنة عمان ودرست في مدارسها، واكملت تعليمها العالي في حقل العلوم الاجتماعية، ونالت درجة الدكتوراه في العلاقات الدولية من جامعة «ورك». تقول ان اعمالها الاكاديمية تتمحور حول «الناس والحرية، والعدالة ونضال الشعوب المستمر في جميع انحاء العالم للحصول على مستقبل افضل».

■ «أيام في الجنة»
غالية سعيد
دار رياض الريس | بيروت
2005

افتتاح رئاسي منقوص لمعرض الكتاب بعد إلغاء لقاء مبارك بالمثقفين:

الهاجس الأمني يقلص أنشطة عدة وأزمة بين الناشرين والقائمين على المعرض

القاهرة ـ «القدس العربي» ـ من محمود قرني:

شهد معرض القاهرة الدولي للكتاب افتتاحا رئاسيا منقوصا في بداية دورته الثامنة والثلاثين التي دشنها رئيس الجمهورية حسني مبارك بزيارة عدد من الدور المشاركة لا سيما سراي ألمانيا ضيف شرف المعرض في تقليد يحدث لأول مرة، فعلى غير العادة، وبعد جولته بين الأروقة، غادر الرئيس المعرض للقاء سياسي مع نائب الرئيس الأمريكي «ديك تشيني» مخلفا وراءه تساؤلات مفتوحة عن إلغاء اللقاء السنوي الذي اعتاد عقده مع المثقفين المصريين، ولم تبد الرئاسة أسباباً لذلك كما لم تطرح الصحف المصرية، رسمية وغير رسمية، أسئلة حول هذه الأسباب، وربما انعقد للقاء في وقت لاحق إبان فعاليات المعرض، غير أن شيئا من ذلك لم يتم تأكيده جريا على عادة الرئاسة المصرية بعدم الإعلان عن أنشطتها إلا قبل حدوثها بأوقات محدودة. وتظل التصورات الأرجح تدور حول عدم انعقاد مثل هذا اللقاء لأسباب أرجعها البعض إلى صحة الرئيس التي لم تعد تحتمل بذل مجهودات مضاعفة كما يحدث في الماضي، وإن كان هذا السبب ليس بين الأسباب الراجحة لا سيما بعد عودة الرئيس إلى استئناف نشاطاته بشكل شبه معتاد دون تواتر أية أنباء عن اعتلالات صحية جديدة.

أما السبب الأرجح فهو يدور حول اللجاجات التي ميزت آخر لقائين للرئيس مع المثقفين المصريين، وحيث شهد لقاء العام الماضي ـ الذي جاء محدودا ـ عددا من السجالات مع الرئيس حول تعديل الدستور والإسراع بعملية الإصلاح السياسي، وهو الأمر الذي رفضه الرئيس جريا على ردوده ومواقفه آنذاك، غير أنه جرى تعديل المادة 76 من الدستور عقب ذلك بأشهر قليلة.

ولا بد أن مؤسسة الرئاسة وضعت في حسبانها عدة اعتبارات، حال عقد لقاء الرئيس بالمثقفين في دورة هذا العام من المعرض، حيث أن الأحداث السريعة والمتلاحقة والحراك الذي حدث في عام 2005 يطرح أسئلة لا حصر لها، ربما كانت تحمل بعض الحرج، بين ذلك بالطبع الطريقة التي تمت بها تعديلات المادة السادسة والسبعين من الدستور وما انتهجته في سبيل يؤدي غالبا إلى توريث الحكم لنجل الرئيس تحت مظلة ديمقراطية زائفة، كذلك التجاوزات التي ارتكبتها أجهزة الأمن ضد العديد من التظاهرات السياسية السلمية وحفظ النائب العام للكثير من البلاغات في هذا الشأن، يضاف إلى ذلك طبعا التجاوزات التي تم رصدها في الانتخابات الرئاسية، والانتخابات البرلمانية، والموقف المرتبك من المطالبة الملحة للقضاة بالاستقلال، وإصرار الرئيس على عدم تحريك قانون السلطة القضائية، بالإضافة إلى ذلك تأتي قضية الحكم على أيمن نور رئيس حزب الغد بالسجن خمس سنوات في قضية تشير كافة الدلائل على انها تندرج في إطار تصفية الحسابات السياسية، وتهدف بالدرجة الأولى إلى إقصاء كل العوائق التي يمكنها ان تشكل خطرا مستقبليا ولو محتملا على نجل الرئيس.

ربما لكل هذه الاعتبارات لن ينعقد هذا اللقاء الذي أصبح مثيرا للتساؤلات بأكثر من كونها حقلا للأجوبة.

من ناحية أخرى لا زالت الأزمة الناشبة بين اتحاد الناشرين المصريين المهندس إبراهيم المعلم وبين رئيس هيئة الكتاب ناصر الأنصاري في أوج اشتعالها، بعد أن أقامت الهيئة أسوارا خشبية عالية أمام معروضات دور النشر المصرية والعربية مما سوف يحول بين الكثير من الجمهور وبين هذه الدور ويعقد كثيرا حرية الدخول والخروج إلى دور النشر بعامة، وزيد على ذلك وصف الدكتور الأنصاري لدور النشر بأنها عشوائيات في سياق حديثه أمام الرئيس إبان الافتتاح الرسمي في تبرير إقامة السور.

في المقابل عقد اتحاد الناشرين اجتماعا عاجلا اعتبره رئيسه إبراهيم المعلم اجتماعا طارئا ومستمرا، حيث اتخذ أعضاء مجلس الإدارة عدة قرارات كان على رأسها سرعة إزالة السور الذي أقامته الهيئة أمام دور النشر حتى تتاح الحرية الكاملة للرواد في الحركة والبيع والشراء، وكذلك منعا لأية كوارث قد تنتج عن التدافع أو الحرائق أو غيرها من الأزمات.

و قد اعتبر الاتحاد وصف الأنصاري لدور النشر بأنها عشوائيات خطأ يستوجب اعتذارا علنيا للناشرين المصريين والعرب، واعتبر ان عدم الاستجابة لمطالبه ستكون رفضا سوف يؤدي إلى قيام الاتحاد بعمل معرض كتاب موازٍ يقيمه الاتحاد بعيدا عن تسلط هيئة الكتاب، بل وصف إبراهيم المعلم طريقة الأنصاري في إدارة الهيئة بأنها طريقة أقرب إلى إدارة البوليس السري.

و قد أعلن المعلم أن الاتحاد سيعقد اجتماعا مع فاروق حسني وزير الثقافة للوصول إلى حل نهائي لهذه الأزمة.

و يشارك في معرض هذا العام حوالي 623 ناشرا من 17 دولة عربية و15 دولة اجنبية وذلك بزيادة سبع دول عن مشاركة العام الماضي، وأرجع رئيس الهيئة هذه الزيادة إلى النجاح والتنظيم اللذين ميزا دورة المعرض في العام الفائت. على جانب آخر تقرر أن لا تبدأ أنشطة المعرض إلا في الحادي والعشرين من كانون الثاني (يناير) الجاري أي في اليوم الرابع لانطلاق فعالياته، وذلك في اليوم التالي لانطلاق بطولة كأس الأمم الإفريقية بأستاد القاهرة الذي يبعد مسافة قصيرة جدا عن أرض المعارض بمدينة نصر، كما تقرر إنهاء النشاط في المعرض في الثالثة ظهر جميع الأيام التي تقام فيها مباريات في البطولة، في الوقت نفسه كرر رئيس هيئة الكتاب ـ الجهة المنظمة للمعرض ـ تصريحاته بأن المعرض لن يكون ساحة للخطب والشعارات كما أنه ليس ساحة للمظاهرات السياسية في إشارة واضحة لكافة التيارات التي تشارك عادة في بعض المسيرات السلمية في المعرض احتجاجا على الأوضاع السياسية. وعلى ما يبدو فإن الإجراءات المتخذة حيال ضبط حركة المعرض تتبلور كلها وفي جعبتها الهاجس الأمني الذي يهدف إلى عدم السماح بوجود أكثر من تجمع شعبي واسع في أماكن مختلفة من العاصمة لا سيما إذا كانت نوعية الأنشطة تستهدف جمهورا واسعا سواء كان ذلك في معرض الكتاب أو في استاد القاهرة، وهي إجراءات تؤثر بالسلب على نشاط وحركة البيع داخل المعرض وتثير احتجاج العديد من الناشرين سواء كانوا من المصريين أو غيرهم.

الجنس غربا وشرقا.. من الطهطاوي الى رشيد الضعيف

بيروت ـ من جورج جحا:

على رغم مرور ما يزيد على قرن ونصف القرن على رحلة رفاعة الطهطاوي الشهيرة الى فرنسا في اول «مشاهدة» مباشرة مدونة للغرب في عقر داره بعينين شرقيتين.. ومع تغير الاحوال والناس في شقي العالم هذين.. فهناك امور بقيت من الثوابت نوعا ما في الحديث عن الفرق بين الشرق والغرب. ولا شك في ان مسالة الجنس هي من اهم هذه الامور اذا لم نقل اهمها من حيث كونها لاتزال تعتبر من ابرز سمات الخلاف بل اساسا «معياريا» في الحديث عن الخلاف. ويمكن تسجيل خط ثابت في كثير مما يمكن ان يوصف باسم ادب الرحلات وكذلك الاعمال القصصية البارزة المختلفة منذ ذلك الوقت مرورا بنتاج شهير للطيب صالح هو «موسم الهجرة الى الشمال» وصولا الى اعمال حديثة شتى عند مهاجرين ومهجرين عرب الى اوروبا.. وهو موضوع المرأة وموضوع العلاقات الجنسية. من الاعمال الاخيرة التي تناولت الغرب والشرق في مجال الجنس والحريات الفردية عمل الروائي اللبناني رشيد الضعيف الذي صدر اخيرا تحت عنوان «عودة الالماني الى رشده». وكان الطهطاوي قد سجل قديما عن الغرب عبر الفرنسيين ما لاحظه من حرية النساء الفرنسيات و«تفلّت» قسم منهن موردا ذلك باستهجان غير خفي. وبارك رفض الفرنسيين فكرة ما كان يسمى العلاقات الجنسية «الشاذة» التي عبر عنها بميل البعض الى «الاحداث» مضيفا ان موقف الفرنسيين هذا يشبه موقف بني قومه الشرقيين. الا ان تناول الاستاذ الجامعي الدكتور الضعيف لموضوع الجنس في روايته هذه سجل تغيرا في اكثر من مجال.

لقد تناول موضوع العلاقات التي صارت تدعى الان «مثلية» في ابتعاد عن تعبير «الشاذة» المهين.. فروى علاقة بين رجلين بدت قصة حب حقيقية وعلاقة «زوجية» متينة كما تكون العلاقة الناجحة بين رجل وامرأة. ولا يقتصر التغير الذي جرى على مزاج الاوروبيين او «معظمهم» وهم هنا بالالمان.. واعتبارهم الان المثلية امرا «عاديا» يدخل في باب الحرية الفردية ولا يثير استغرابا.. بل يعكس لنا ايضا قدرا من التغير المماثل الذي طرأ على عقلية قسم من الشرقيين خاصة المثقفين ممثلين هنا بالكاتب اللبناني الذي يصف الامور دون ادانة ودون اي موقف اخلاقي سواء اكان سلبا ام ايجابا. هو لا يرجم ولا يصفق بل يعرض الامور كما هي او كما بدت له بقدرة سردية جذابة. وقد يقول قائل اننا لا نستطيع التعميم وان الناس ليسوا جميعا اصحاب عقلية منفتحة كعقلية مثقف متحرر كالضعيف وامثاله.

لكننا نستنتج ايضا تغيرا في عقلية الناس عبر تقبل جمهور القراء لاعمال كهذه. فرشيد الضعيف هو في طليعة الروائيين اللبنانيين من حيث اقبال القراء على نتاجه. هناك اذن مناخ اجتماعي وفكري متغير جليّ في الغرب.. وفي الشرق الى حد ما. صدرت رواية الضعيف في 92 صفحة من القطع المتوسط عن دار رياض الريس للكتب والنشر. الضعيف في روايته هذه وهي سيرة او «قسم من سيرة» كما قال لرويترز.. يكتب بهدوء عرف عنه وبسهولة متخمرة جاءت عميقة وشفافة ودون تسطيح ويطل على تلك السيرة من زوايا اجتماعية ونفسية فردية ومجتمعية في الغرب.. وعند افراد ومجموعات من الناس شرقا. وقد قال ان كل ما جاء في الرواية حقيقي لكن دون ان يكون الامر تسجيلا اليا او فوتوغرافيا «فهناك اختيار وتركيب». يورد في المقدمة وقائع الامر على الشكل التالي «التقيت بالكاتب الالماني يواخيم هلفر في اطار برنامج «ديوان شرق ـ غرب» الذي مولته الحكومة الالمانية ونظمه معهد غوته ومؤسسات المانية اخرى. وكان هذا البرنامج يقضي بان يزور كاتب ما من بلد عربي او اسلامي برلين لمدة ستة اسابيع يجري خلالها نشاطات مع كاتب الماني ثم يزور الكاتب الالماني بلد الكاتب هذا لمدة ثلاثة اسابيع ويجري معه نشاطات مشابهة وتكون هذه مناسبة ليعرف الواحد منهما الاخر عن قرب» بهدف اقامة حوار ثقافي بين الكتّاب.

في الفصل الاول جاء ان توماس هارتمان مدير البرنامج اتصل بالضعيف واخبره عن زميله هلفر ابن الاعوام التسعة والثلاثين «ولكن اللافت انه اصر على اعلامي بانه مثليّ فقلت له ان هذا شيء يخصه ولا دخل لي فيه. فقال اوكي ولكن رأيت ان من واجبي اخبارك... كان في صوته وهو يكلمني.. شيء من الحرج».

وفي حديث الضعيف الى رويترز قال «كان لدي فضول للاطلاع على حياته. احسست ان الامر ليس عاديا ان نرى شخصا حرا بسلوكه.. فشعرت بان من الممكن ان «اشتغل» قصته ادبيا... لقد قدمت نفسها لي كعمل ادبي».

اضاف انه هنا كتب «سيرة روائية. الموقف هو عرض الاشياء. هناك مزج الى حد ما بين شعوري الخاص الذي هو الغالية وبين شعور ما عام. هناك شعور في بيروت مثلا هو شعور متسامح. لقد حاولت ان اشير الى مشاعر اخرى ليست هي المشاعر الغالية بالضرورة.. والى المشاعر الغالبة». اضاف عن الرواية «هذا شعوري الخاص. رؤيتي للشخص المثلي وردود فعل وسطنا عليه».

يقول الكاتب في الرواية انه وان قال لهارتمان ان امر مثلية هلفر امر يخص صاحبه ولا دخل فيه فهو قد فكر في الامر مليا وان كانت المسألة المثلية شأنا يتابع اخباره عن بعد لانه من «بيئة تحتفل بالذكورة... ثم استدركت وقلت ولم لا.. فليكن مثليا فقد تكون تجربة مفيدة جدا خاصة وانني اهتم كثيرا بامور الاخلاق والاخلاق الجنسية بالتحديد واكتب عن ذلك».

وقال انه كثيرا ما ردد ان «الفراش هو المكان الذي يجري عليه الصراع الفعلي بين الشرق والغرب» وهو «جبهة من الجبهات المفتوحة بين «التقليد» العربي والحداثة الغربية» وان كان في هذا القول «شيء من التقريب الذي لا يتصف بالدقة».

تحدث عن نشأة يواخيم وعن تجاربه مع المرأة وقوله انه يظن احيانا ان له ولدين من علاقتين قصيرتي المدى مع امرأتين قبل ان يتعرف وهو في التاسعة عشرة من عمره الى صديقه «نون» الذي يكبره بثمانية وثلاثين عاما «ولم يفترقا بعد ذلك التاريخ اي منذ عشرين عاما وهما يسكنان في بيت واحد وينامان في فراش واحد ويشتركان في كل شيء كرجل وامرأة زوجين ولم يؤد خلاف بينهما يوما الى الطلاق لانهما في رباط حر».

وعلى عكس ما توقع وجد ان بيتهما كان مفاجئا له «من حيث الذوق والنظافة والثقافة». الا ان من الامور التي كانت تؤرق يواخيم توقه الى ان يتعرف الى شاب صغير يمضي معه سنواته التالية لكنه يخاف «ان يترك نون وهو في سنه المتقدمة هذه لشيخوخته ووحدته او ربما انه لا يخاف بل يأبى».

وعندما زار الالماني لبنان جال به الكاتب في مناطق مختلفة وقصدا مع رفاق وزملاء مطاعم ومنتجعات وتلقيا دعوات في منازل اصدقاء. وكان الضعيف يخشى ان يواجه زميله اذا تكشف امره متاعب او ردود فعل قاسية مع ان هناك مثليين في بيروت وقد عرفه الى بعضهم دون افصاح عن الامر لكن يواخيم كان يميزهم دون حاجة الى كلام زميله. وتعرف يواخيم الى صحافية المانية تعمل في بيروت وبدا ان نوعا من الجاذبية نشأ بينهما. ويصف الضعيف هذه السيدة بقوله «كانت مستقيمة الجسم كجنرال انتصر في معارك تاريخية حاسمة. كانت تقف فخورة /بماذا.. لم استطع ادراك دوافع فخرها هذا/ وبشيء من الزهو وربما التحدي ايضا. كانت ترجع راسها الى الوراء كمن يحاول ان يرى راس انفه. كان حضورها مؤثرا. كان حضورها قويا». وبعد مدة قال الالماني لزميله وسط استغراب الاخير وسروره.. انه يتوقع ان يصبح ابا. وقد دعاه الضعيف مع صديقته الى بلدته اهدن المنتجع الجبلي الشهير في شمال لبنان واقام له «عرسا» تخلله عزف على العود ورقص وغناء عربي. وعلم الضعيف بعد سفر زميله الى المانيا ان الجنين لم يصمد فحزن. وعلم لاحقا انهما رزقا بطفلة وان يواخيم يوزع اوقاته بين ام طفلته وبين نون. وقال الضعيف لرويتر ان كتابه هذا ترجم الى الالمانية قبل نشره بالعربية وان الكاتب الالماني قرأه وكتب نصا هو نوع من التعليق عليه وان دار النشر الالمانية الشهيرة «سوهر كمب» قررت نشر نص الضعيف وتعليق الكاتب الالماني عليه وسيصدران في كتاب اخر الصيف القادم كما سيصدر نص الكاتب الالماني مترجما الى العربية في طبعة اخرى. (رويترز)

أنا سارق كتب فاحذروني!

زياد خداش *

■ اصطادتني الكتب برائحتها أولا، كانت مكتبة أبي ضخمة جداً، تفوح منها رائحة حريفة، كنت طفلاً، لا يعرف من العالم سوى الركض. كنت اتنفس الركض وآكله وانام فيه او به، كانوا يسمونني في المدرسة الطفل الراكض، في مساء ما، كنت وحدي في البيت، الرائحة الغريبة البهيجة الغامضة مدت خيوطها تجاه روحي، واحتكرت شغفي، سرقت طفولتي، رأيت نفسي اتسلق رفوف الكتب، فغمت الرائحة كياني كله، اربكت تاريخ احاسيسي باللذة الحسية، اتذكر أني ظللت واقفاً على السلم مغمضاً عيني، مستنشقاً رائحة الكتب والمجلات القديمة، انتقلت الى زمن اخر، لا اعرفه. كان الاحساس اشبه بنزهة برية الى خلاء عجيب، مليء بالنمور التائبة، والشجر الكثير، لا اتذكر الوقت الذي استغرقه وقوفي على السلم، لكني اتذكر أن صيحة أبي هزتني من غيبوبتي، وايقظت وعيي.

فيما بعد وبعد مرحلة الشم، تعرفت على ملمس الكتب، والمجلدات، كنت اضم الكتاب الى صدري واشمه ملء طفولتي المصدومة، كان ابي يراقبني بفرح صامت، سمعته مرة يقول لأمي همساً «علاقته الغريبة مع الكتب تعجبني جداً». لم افهم حينها مغزى كلام أبي حين ضبطت نفسي مرة أنام بجانب المكتبة، اتخذ فرح أبي شكل قبلات خاصة وحميمة تركها أبي على خدي رطبة وقوية. بعد سنوات قليلة، وجدت نفسي احاول أن اقرأ في الكتب التاريخية والادبية، بحثاً على لذة الايقاع والموسيقى، صوت الحرف كان له رنين يسكرني.

بدأت علاقتي مع الكتب تنحو منحى اخر، اقرب الى مضامينها، ومحمولاتها، صار أبي يقرأ لي القصص والحكايات، ويلون كل معنى بصوت خاص، ذات ليل اسري ناعم هادئ سمعت امي تقول لأبي: علاقته بزملائه وأصدقائه أصبحت ضعيفة، انه يمضي وقته يشم الكتب ويتحسسها، انا خائفة عليه. حين رد عليها ابي بالصمت، احسست بخوف، لكن لذائذ الصوت والرائحة والملمس، كانت بمثابة بوابات جنة عجيبة، بدأت اقرأ، وأفهم، بدأت اعرف ان الكتب ليست رائحة وصوتاً وملمساً فاخراً فقط، هي كنز معرفي وحيوات كثيرة وتاريخ، بشر ومصائر شعوب، وفنون ايضاً، وهكذا اخذتني الكتب الى حقيقتي، وقيعاني، واشعاعي الداخلي، واسرار الوجود. اصبحت الكتب صديقتي التي لا تخون ولا تخذل ولا تتجسس على اخباري وتنقلها لاعدائي، انها الكتب التي ترمم ما خرب من روحي، تقلم شجر وجداني الوحشي، تهذب من فظاظتي في استدعاء حواسي حين يلتهب الجسد بنار امرأة القت تجاه ادغالي ببحيرتها الضاجة بالبط والظباء والمشمش والشوكلاتة . انها الكتب التي تؤكد انسانيتي وحقي في استخدام الحياة لأعرف اكثر وامارس الحيرة المنتجة وفن السؤال اللذيذ،

انام مع الكتب كل ليلة، امارس معها الحب، تعطيني حليب المعرفة بسخاء شديد واعطيها عرق الذهن بحب كبير. من غير الكتب أنا مجرد انسان يشبه ماكينة بلهاء يأكل ويشرب ويمشي وينام. بالكتب انا انسان، يفكر ويحب وينتمي ويضحي ويستمع ويكتشف ويكشف ويتغير. ذهبت سنوات الطفولة، غابت براءة الطفل داخلي، صفعتني هواجس الرجولة الخبيثة والمصالح. أنا الان في الاربعين من تيهي وشقائي، انام تحت رموش الكتب، تختبئ عيوني في ظلمات الاساطير، ابو الفرج الاصفهاني يزورني كل ليلة متأبطا ذراع ماركيز، اما كازنتزاكي فيشرب في حانة ذهني نبيذه العتيق مع طاغور، محمود درويش يرفرف في فضاء قلبي و فجري، ويرقص ادونيس في مرقص عقلي بلا توقف في مساءات المطر الضجرة والليل الطويل.

حين تتركني حبيبتي لايام اهرب الى كتاب، حين تسامحني صديقتي اهرع فرحا الى كتاب، حين اسافر ألتحف كتابا، حين اخاف الود بكتاب، حين امرض اتحامل على وجعي واتخيل الكتاب غرفة في مشفى او ممرضة بيضاء فاتنة تضع يدها على كتفي وتبتسم.

حين يغضب مني الاصدقاء اهديهم كتبا فيرضون عني، حين يتزوج صديقي لا اقدم له نقودا كما العادة بل اهديه كتابا، اسرق الكتب من مكتبات اصدقائي ولا اعتبر ذلك خللا في اخلاقي او مرضا بل منتهى الصحة والروعة والقوة وخفة الروح، وحين يعيرني صديق كتابا تحت الحاحي وتوسلي اكتب عليه اسمي فورا واهديه لي، حين يطالب به الصديق اكذب عليه واقول : اخذه الجنود الاسرائيليون معهم مع مجموعة كتب اثناء اقتحامهم لبيتي في المخيم فيخرس صديقي ويطأطىء رأسه، هاهاهاها. في معرض فلسطين الدولي الاخير للكتاب لم اكن املك ذلك الشهر الا مئة شيكل حتى اخر الشهر وكنا في بدايته، لم استطع مقاومة اغراء الكتب الجديدة التي طالما سمعت عنها، حاولت ان اسرق فلم افلح فقد كانت الرقابة شديدة، حزنت وغادرت المرض ولم اعد . لو حدث وان سرق مني كتاب احبه اجن تماما وقد امرض وأرتكب افعالاً غريبة كأن أخرمش وجه السارق او اسرق منه قلما ثمينا، واطلب منه اعادة كتابي مقابل القلم. اعتقد ان سارق الكتب لن يدخل النار فهو انسان بسيط و فقير يريد فقط ان يمتع ذهنه، ويوسع من دوائر ذهنه وروحه، اعتقد ان الله الجميل يضحك ملء جبروته وغفرانه وعذوبته وقلبه حين يراقب سارق الكتب وهو يسرق واعتقد انه يستدعي الملائكة ويقول لهم ضاحكا : الكتب تشبه المرأة تماما لكن هناك فرقا صغيرا هو ان المرأة لا تحتمل ان يشاركها في حب صديقها احد بينما الكتب تتحمل ذلك.

قراءة الكتب التي نحبها هي نفسها ممارسة الجنس مع المحبوبة، لكن الذهن والقلب يحلان محل الجسد في الثانية، والنشوة في الاولى هي نشوة القلب و الذهن وقد نعبر عنها بصيحة او بارتجاف او بتنفس للصعداء او بشهيق طويل، اما الثانية فهي صيحة جسد ممتعة وصاعقة و مغرقة في ظلاميتها وبدائيتها، كلتاهما هما التجسيد الاروع و الاصفى والاعظم والادق لهذه الفاتنة المجنونة التي تدعى حياة.

---

* كاتب من فلسطين
zkhadash@yahoo.com